



وأنت تقرأ القرآن ستجد في سورة لقمان وصية أبٍ لابنه، تستوقفك التربية الإيمانية، فكلما تلوتها أحسستَ بعظم الوصية لما حوتة من «أصول الشريعة وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس»[1]، تلمس فيها حنان الأب وشفقته وحرسه على ابنه. وحين تطالع السنة النبوية تجد نصيحة النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ولابن أخت زوجته ميمونة رضي الله عنها، وهو غلام، في حديث: «احفظ الله يحفظك»، الذي يقول عنه ابن رجب الحنبلي: «هذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين وأجلها»[2]، ويلاحظ على هذه الوصايا أنها كانت مشافهة، إذ العقل حاضر لاستيعابها وحفظها، فأدوات الكتابة آنذاك لم تكن ذات وفرة، ومن رحمة الله بهذه الأمة أن حفظ لها الوحي المبين،وها نحن نطالعها اليوم وكل يوم.

وحيال إطلالة سريعة على الأدبيات التي كُتبت كنصيحة من الآباء إلى الأبناء، تجد أن هناك نصائح عدّة مبثوثة في طيات الكتب، وفي كتاب «المنتخب من وصايا الآباء للأبناء» لـ«وائل خلف» تطالعك وصايا الآباء والأمهات للأبناء، وهي في مجلّها وصايا إيمانية، وقد دونت شيئاً من وصايا الأمهات للأبناء في مقال سابق عنوانه «الأمومة ميلاد أمة»[3]، كما أن هناك نصائح صنفت لهذا الغرض في مصنف مستقل، منها «النصيحة الولدية» لأبي الوليد الباقي (ت: 474 هـ)، ورسالة «أيها الولد»، تُسمى بـ«الولدية»، للغزالى (ت: 505 هـ) وهي موجهة لتلميذ له، ولابن الجوزي (ت: 630 هـ) رسالة كتبها إلى ابنه أبي القاسم لما رأى فيه نوعاً من التوانى عن الجد في طلب العلم، و«إلى ولدي» لأحمد أمين، وهي في الأصل سلسلة مقالات لمجلة الهلال نُشرت عام 1950 م، و«إلى ولدي» لجود شبر، وهي مجموعة من القطع الشعرية قام بجمعها المؤلف، و«وصايا إلى ولدي» لمصطفى أغاث، وهي مجموعة نُشرت في إحدى الصحف، وغيرها.

فمن خلال هذه اللῆمة للأدبيات التي اهتمت بال التربية الإيمانية أدركنا أهميتها، مع إغفالها للأسف في واقعنا حيث تم التمرّكز حول التربية المادية والرفاهية المفرطة، وبرهان ذلك: الجيل الذي خرج علينا اليوم وهو في ربيع الزهور من عمره يكفر ويفجر، في أشرف مكان حيث ينادي بالله أكبر، في بيوت أذن الله أن ترفع ويدرك فيها اسمه، حيث يصطف المسلمون في الجمع والجماعات، ألا يدلّك هذا على غياب التربية الإيمانية من الوالدين والأسرة؟!

وبرهان آخر انتشار ظاهرة التشكيك في المسلمين بين كثير من الشبان والشابات، وإعادة قراءة النصوص من جديد، وعدم التسلّيم للأحكام الشرعية بدعوى حرية الرأي، مما مهد لظهور الإلحاد، وبرهان ثالث اختلال منظومة القيم والأخلاق لدى

الأبناء من الصغار والكبار، حيث تفشت النزعة الاستهلاكية، والركض خلف الماركات حتى وإن كانت مقلدة! والتنافس على التفاهات، كما تبدي لنا جيلاً يستعرض بجسده على الشاشة المرئية عبر موقع التواصل يهدف للتفاعل السريع بنقل الحدث مباشرة وهو ساخن!

أختم ببرهان الانسياق وراء البرامج التدريبية والتنمية البشرية التي تحتوي على الممارسات الشركية التي ضجت بها الساحة، وخليبت عقول الأجيال، وما هي إلا موراثات ديانات شرقية، منها دورات «الداوزنج»: وهو التنبع بالغيب ومعرفة الأشياء المفقودة من خلال الاستعانة بأحجار معينة انتشرت في الأسواق.. تدريب على الصور الشركية لكنه بحلة جديدة عصرية يتم التسويق لها!

والسؤال: لماذا هذا الانحدار المعرفي العقدي الفطري القيمي للبعض من أجيالنا؟!
ألا يحتاج إلى وقفة من قبل الآباء والأمهات؟!

أليس السبب غياب التربية الإيمانية من الأم والأب؟! أليس السبب غياب الاستشعار بالمسؤولية؟! أليس هو كفرٌ بنعمه الأبناء حيث لم يُشكّر الله عليها مع أن هناك من حرم منها؟! أليس السبب إسناد الأمر إلى غير أهله في التربية حيث تشاغل المسؤول عن رعيته؟! أليس السبب تقلص دور الأسرة حيث غابت الأسرة الممتدة وظهرت الأسرة النووية، وأصبح لسان حال الكثير «تغير الجيل»، و«هذا جيل الإلكترونيات»، مع اقتصار دور التربية على المدرسة فحسب؟!

كثيراً ما أتجاذب أطراف الحديث مع الأمهات عن وسائل التربية لمشاركتهن في الهم الذي نحمله جميعاً، مازا قرأتنا؟! مازا تعلمنا؟! هل استفدنا من خبرات أمهاتنا وأجدادنا؟! أتفاجأ بأن ليس ثمة اهتمام بالجانب التثقيفي لأساليب التربية!! وتصفعني الإجابة بـ«هذا الجيل غير»!!

من مِنا جلس مع ابنه يعلمه أمور دينه، يحرك الحسَّ الإيماني الفطري بداخله، ورسم له خطة تربوية إيمانية تهدف لتشنته على منهج الحق؟!

لن أغضَّ الطرف عن النماذج المشرقة في المجتمع عبر كل عصر وفي كل مصر، التي استشعرت نعمة الوالدية والولد فربت أبناءها تربية إيمانية واعتنى بهم عناية شديدة، وبدلت في ذلك طرفاً عدّة، منها كتابة النصائح لأولادهم، وهو أسلوب تربوي هادف، وخارق، له أثرٌ عجيبٌ من واقع تجربتي له، فمنِّ الآباء فكّر فيه ونفذَه؟!

ومن ذلك «النصيحة الولدية» لأبي الوليد الباقي، التي سأسطر الحديث عنها من خلال الحديث الموجز عن الوالد للتعرف عليه أولاً، وثانياً: تدوين بعض الشذرات الذهبية عنها.

أما الوالد: فهو أبو الوليد الباقي سليمان بن خلف بن سعد بن أبيوب التجبيي الأندلسي الباقي، الفقيه المالكي قاضي الأندلس، الأصولي المفسر، من سلالة بيت علم، أحد الحفاظ المكثرين في الفقه والحديث، له مصنفات عديدة في الجرح والتعديل والتفسير والفقه والأصول، منها كتاب «النصيحة الولدية»، وأخذ عنه ابن عبدالبر صاحب «الاستيعاب»، وبينه وبين ابن حزم مجالس ومناظرات[4]. هذه لمحَّة يسيرة عن كاتب الوصية ومكوناته العلمية والفكيرية.

الشذرات الذهبية من «الوصية الولدية»:

تقع «الوصية الولدية» في سبع وعشرين صفحة، يُخالد أبو الوليد الباقي كلماته لولديه، وألْخَصَ منهجه فيها: بأنه يوصي أبنيه بمسألة ثم يدلل عليها، ويحرك الجانب الإيماني فيما فيهما فيذكر بالأخرة ومراقبة الله تعالى، ولا يُغفل إثارة العقل ليستحثه

على التفكير، كما امتاز منهجه بأنه يقوم على الترغيب والترهيب ولم يقتصر على أحدهما، وهو منهج تربوي مهم للنفس البشرية، ومن مميزات منهجه أيضاً أنه يأمر فيرغب، وينهى فيخوف، فالنفس حيناً تقبل، وحياناً تدبر، فهي بحاجة لمن يوجهها في جميع حالاتها، وهذا هو منهج الأنبياء، ومن مميزات وصيته أنه يهتم بالفرد المنتمي لأسرة ومجتمع وأمة، أي أنه لا يتمركز حول الفرد وحده، ولا يفصله عن مجتمعه، ولا يخضعه له، فالسلطة هنا دينية ليست فردية ولا مجتمعية، فهو يرسم معالم الطريق لبنيه بمنهجية علمية مؤصلة، حيث يقول: «ففيما أرسمه من وصيتي وأبنيه من نصيحتي ما إن عملتما به، ثبتما على منهاج السلف الصالح، وفزتما بالمنجر الرابع، ولنلتما خير الدنيا والآخرة» (ص2).

تأمل ربطه الدنيا بالآخرة، لم تقتصر على جانب دون آخر، رسمه وفق منهج علمي مبني على الدليل، موضحاً الغاية والوسيلة.

لماذا يدون الأب نصيحته لبنيه؟ يجيب قائلاً: «لا أحد أنسح مني لكما، ولا أشفق مني عليكم» (ص2)، يترجم حبه وشفقته في إسداء النصح لهما، فلم يغلب الجانب العاطفي، بل جعله وسيلة لإسعاد ابنيه.

يبتدئ الأب أولى وصاياه بوصية التمسك بالدين، وهي وصية الأنبياء لأنبائهم: {وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بْنَهُ وَيَعْقُوبُ بْنَهُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [البقرة: 132] فيقول: «أؤكد عليكم في ذلك وصيتي، وأكررها حرصاً على تعلقكم وتمسككم بها الدين الذي تفضل الله تعالى علينا به» (ص4)، هنا يذكر الأب ابنه بنعمة الإسلام التي هي من فضل الله على كل مسلم، وهو يذكرنا بقول يوسف الصديق: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} [يوسف: 38]

لماذا الوصية بالإسلام؛ لأنه يرجو اللقاء بهما في الجنة «حيث لا تخاف فرقة، ولا تتوقع إزالة، ويعلم الله تعالى شوقي إلى ذلك وحرضي عليه، كما يعلم إشفافي من أن تزل بأحدكم قدم، أو تعدل به فتنة، فيحل عليه من سخط الله تعالى ما يحله دار البوار» (ص4).

يا الله ما أعظمك من رجاء، هكذا تربط التربية الإيمانية لقاء الدنيا بالآخرة، أي نعيم هذا الذي لا يكاد يوصف.. يجعلك الله وأولادك وبمن تحب في الجنة دار الخلود حيث اللقاء السرمدي! بالله عليكم من منا فكر في هذا اللقاء وسعى لتحقيقه؛! ألا يحتاج منا عشر الآباء والأمهات لوثبة؟!

كثيراً ما شغلنا بالإغراء في التفكير لتوفير كل ما يخلد أبناءنا في الدنيا: مسكن مشرب مأكل ملبس... لم يدر بحسبانا أن نفكر فيما يجمعنا بهم في الآخرة، غابت عننا الغاية الحقيقة، فاكتفينا بالنظر إلى سعادة العاجلة ولم نفكر بالآجلة.

ثم بعد هذا الاستهلال يقسم وصيته قسمين:

الأول منها يختص بـ«الدين» وامتد هذا القسم من (ص5 إلى ص16).

والثاني يختص بـ«الدنيا» وكان الحديث عنه من (ص17 إلى ص27) حيث التعامل مع الآخرين، إلا أن لي تحفظاً على تقسيمه، لأنني أجد ما سطره في هذه الوصية كله من أمور الدين حيث لا تنفك حياة المسلم عن التعبد لله تعالى في حياته كلها، وكأني به يريد أن يربى نفوس أولاده أولاً تربية إيمانية، حتى إذا تمكّن الإيمان منهم تعاملوا مع الآخرين وفق ما يميله إليهم إيمانهم، لا كما ت ملي عليهم أهواؤهم ويلو لهم، فالإنسان بطبيعة يحتاج لأن يتعامل مع الآخرين ولا بد له من أخلاقيات التعامل مع الآخرين. الشمولية التربوية في الوصية تُنبي عن نظرة عميقة للمربي حيث يربى الفرد المنتمي للأمة لبنيها، لا المنفك عنها الذي لا شأن له فيها.

فيبدأ بأركان الإيمان التي مبنها على الغيب حيث التصديق والتسليم، ثم بين المصدر المعرفي لهذه المسائل، وهو الكتاب والسنة، إذ المسائل لا بد لها من دلائل تبرهن على صدقها ويقينها حتى لا يساور الشك النفس البشرية الضعيفة وليطمئن القلب، ثم بين لهم المنهج الحق للسلف للتأسي به، وبينه في طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم المبنية على المحبة، لتعرف أكثر على سنته، وللإنقياد له بربما، ومن الوصايا أيضاً أن تشرئب القلوب محبةً لأصحابه أجمعين رضوان الله عليهم، وبيان فضلهم ومزيتهم على الأمة ليكون المنهج واضحًا أبلغ لا يتلاجلج السالك فيه، ومن الوصايا أيضًا توقير العلماء فهم من يحفظون ميراث النبوة.

وبعد أن بين لهم أصول المسائل وأدلتها وبصرهم بالمنهج انتقل من عمل الباطن إلى عمل الظاهر حيث يترجم الإيمان الذي يسكن في القلب فعل الجوارح، فشرع يذكرهم بأركان الإسلام: «وإقام الصلاة، فإنها عمود الدين وعماد الشريعة، وأكد فرائض الملة في مراعاة طهارتها، ومراقبة أوقاتها، وإنعام قرائتها، وإكمال رکوعها وسجودها» (ص6)، أداء الزكاة «لا تؤخرها عن وقتها، ولا يدخل بكثيرها، ولا يغفل عن يسيرها، وبأوفي وزن، فإنَّ الله تعالى أكرمُ الكرماء، وأحقُّ من اختيار له، ولنُعْطِ بطيء نفسٍ، وتيقنِ أنها بركة في المال وتطهيرٌ له، وتدفع إلى مستحقها دونَ مُحاباةٍ ولا متابعةٍ هوى ولا هوادة» (ص7)، فهو ينبه بتتحية الهوى بالكلية عند أمر الله.

صيام رمضان «فإنه عبادة السر وطاعة الرب» (ص7)، ثم حج بيت الله الحرام «الحج العبور ليس له جزاء عند الله إلا الجنة» متفق عليه، الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، يحثهما على السباق لشعائر الإسلام، وألا يضيعا حدود الله، أي أنهما لا يكتفيان بالإتيان فقط بل يحفزُ فيهما الجانب الإيماني، السباق إلى الله تعالى {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 133].

هناك من يأتي بأحكام الشريعة وهو يستشعر التكليف بها فحسب، وهناك من يستشعر محبة وعظم من أمر بها ليسارع ويسابق إليها، أليس هذا عاملاً من عوامل الثبات على الدين الحق؟!

ما السبيل لمعرفة ما ذكره سابقاً؟ إنه طلب العلم: «واعلموا أنكم إنما تصlan إلى أداء هذه الفرائض والإتيان بما يلزمكم منها - مع توفيق الله لكم - بالعلم الذي هو أصل الخير، وبه يتوصل إلى البر، فعليكم بالطلب؛ فإنه غنى لطالبه، وعزيز لحامله، وهو - مع هذا - السبب الأعظم إلى الآخرة؛ به تُجتنب الشبهات، وتصحُّ القراءات» (ص8)، وبعد أن بين مكانة طلب العلم بدأ في بيان فضله ومكانة العلماء للترغيب فيه، وأن أفضل العلوم علوم الشريعة، ثم يحذرهما من الاطلاع على كتب المنطق والفلسفة ابتداءً، حتى لا يقعوا في الشك والريب.. منهج تربوي في القراءة والبحث للتكوين الفكري والتأصيل المنهجي.

ثم شرع في الجانب السلوكى والأخلاقي، الذى لا ينفك عن الجانب التعبدى التوحيدى الذى يتعبد به المرء ربه، فيبدأ بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وطاعة ولاة الأمر في غير معصية الله، والالتزام بالصدق واجتناب الكذب، وأداء الأمانة، وتميم الميزان لأن النقص مقت، ثم ينهاهما عن المشاركة في سفك الدماء: «إياكم والعنون على سفك دم بكلمة، أو المشاركة فيه بلفظة، فلا يزال الإنسان في فسحةٍ منْ دينه ما لم يغمِّسْ يده أو لسانه في دم امرئ مسلم. قال الله تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِيبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعْدَ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: 93]» (ص12).

ولا تقربوا الزنا لأن اجتنابه من أخلاق الفضلاء، وإياكم وشرب الخمر «فيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَوَصَفَهَا بِالرِّجْسِ، وَقَرَنَ الْفَلَاحَ بِاجْتِنَابِهَا، فَهَلْ يَسْتَجِيْزُ عَاقِلٌ يَصْدِقُ الْبَارِئَ فِي خَبَرِهِ تَبَارِكَ اسْمُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ أَرَادَ الْخَيْرَ لَنَا فِيمَا حَذَرَنَا عَنْهُ مِنْهَا أَنْ يَقْرَبَهَا أَوْ يَتَدَنَّسَ بِهَا» (ص12)، وإياكم والربا «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ نَهَى عَنْهُ، وَتَوَعَّدَ بِمُحَارَبَةِ مَنْ لَمْ يُتَّبِّعْ مِنْهُ» (ص13)، ولا تأكلوا مال أحد بغير حق وعليكم بطلب الحال واجتناب الحرام، وإياكم والظلم فإنه ظلمات يوم القيمة،

وإياكما والنميمة «فإن أول من يمقدت عليها من تنقل إليه» (ص13)، «وإياكما والحسد فإنه داء يهلك صاحبه، وإياكما والفواحش فإن الله تعالى حرم ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغى بغير الحق، وإياكما والغيبة، فإنها تحبط الحسنات، وتُكثّر السيئات، وتُبعَدُ مِنَ الخالق، وتُبْعَذَ إلى المخلوق، وإياكما والكبُر، فإنَّ صاحبَه في مقتِ الله متقلِّبٌ، وإلى سَخَطِه مُنْقَلِبٌ، وإياكما والبخل فإنه لا داء أدوا منه، لا تسلُّمُ عليه ديانة، ولا تَتَمَّ معه سيادة، وإياكما وشهادة الزور فإنَّها تقطع ظهر صاحبها، وتُفسدُ دينَ متقلِّدِها، وتُخلد قبح ذكرِه، وأولُ منْ يَمْقُتُه ويَتَمَّ عليه المشهودُ له، وإياكما والرِّشوة، فإنَّها تعْمِي عينَ البصرين، وتحطُّ قدر الرِّفيع، وإياكما والأغاني، فإنَّ الغناء ينْبَتُ الفتنة في القلب، ويولد خواطر السوء في النفس، وإياكما والشطرنج والنرد فإنه شغلُ البطالين، ومحاولة المترفين، يفسدُ العمر، ويشغلُ عن الفرض، ويجبُ أن يكون عمركما أعزَّ عليكم وأنضلَ عندكم من أن تقطعاه بمثل هذه السخافات التي لا تجدي، وتفسدُه بهذه الحماقات التي تضرُّ وتردي، وإياكما والقضاء بالنجوم والتَّكُونَ فإنَّ ذلك لمن صدَّقه مُخْرِجٌ عنِ الدِّينِ، ومُدخلُه في جملة المارقين» (ص14- 16)، جملة من النواهي يبيّن دليلاً وسبباً للنبي عنها، فالنفس حيناً تركت للدُّعَة وتميل للهوى فتُتَحْرِفُ، فهو يوجهها للاستفادة من سنوات العمر حتى لا تضيع سُدُّى.

في القسم الثاني من وصيته ينتقل من الحقوق والواجبات العامة إلى الحقوق والواجبات الخاصة في الأسرة، فيذكر الأخ بحق أخيه، ثم يذكر الكبير بالعطف على الصغير، والصغير بتوقير الكبير، مع بيان واجب كل منهما تجاه الآخر، نظرية الواجبات والحقوق الإسلامية المتبادلة وليس المتنزعَة قوةً وغصباً، ويحيطُ هذه الأخوة بسياج النصح لله، ومحبة الخير لكل منهما، وغرس الإيثار، والتعاطف والتواصل لنيل رضا الله، ثم ينهاهم عن جملة من الأخلاق التي تفسد عليهم دينهم ودنياهם وعلاقتهم الاجتماعية: «إياكما والتنافس والتقاطع والتدابير والتحاسد» (ص18)، وهو يمحض لهم النصيحة في بذل المعروف من قبل ومن بعد، «منْ أَسْدَى مِنْ كُمَا إِلَى أَخِيهِ مَعْرُوفًا أَوْ مُؤْكَرَةً أَوْ مُوَاصِلَةً، فَلَا يَنْتَظِرُ مُقَارِضَةً عَلَيْهَا» (ص18)، وحتى إن نسي أحد أبنائه وصيته ولم يعمل بها، فأخطأ في حق أخيه، فالآخر يتلافى تلك الإساءة بتمسكه بوصية أبيه، والصبر على أخيه، والرفق به.. يحرك جميع البواعث النفسية في نفوس أبنائه، تارةً بتذكرة وصية الأب الذي يحوز في قلبه على مكانة عليه وله حق السمع والطاعة في غير معصية، وأخرى بوجوه البر والإحسان، وثالثةً يذكرة بالعاقبة «فإنه يُحَمِّد عاقبة صبره، ويُفْرِز بالفضل في أمره»، ثم يؤكّد على الاجتماع والاتفاق ونبذ الفرق، وتنسَّع النصيحة الوالدية لتشمل أفراد الأسرة من ذوي القرابة، فيوصي ابنيه بصلة أرحامهما، وتعهدُهم بالزيارة وتفقد أحوالهم المادية والمعنوية، وقضاء حوائجهم، دون أن ينتظروا جزاءً أو شكوراً، فإنَّ هذا مفسد لعلاقتهم، ثم تنتقل الوصية الوالدية إلى الجار، بحفظه وكف الأذى عنه وبستر عورته، والصبر عليه، مبيّناً حقوق الجار بالقرب وبالنسبة، ثم يوصيهمَا بصلة أصدقائِه، فمعانِي الوفاء تتجلى حتى بعد رحيل الأب.

ويذكر بوصايا قليلة يحتاجها الإنسان ليقوى على عبادة الله ومواجهة الأزمات بروح المؤمن بالتوكل على الله تعالى وتقويض الأمر إليه، والاستعانة بالدعاء في اليساء والضراء، «فإن الدعاء سفينة لا تعطب، وحزب لا يُغلب، وجند لا يهرب» (ص21)، والاستمرار على الدعاء مع إحسان الظن بالله «فالذِي أَهْمَكَمَا إِلَى الدُّعَاءِ وَوَفَّقَكُمَا، لَا بدَّ أَنْ يُحْسِنَ الْعَاقِبَةُ لَكُمَا، وَقَدْ نِجَاكُمَا بِدُعَائِكُمَا عَنِ الْكَثِيرِ، وَصَرَفَ بِهِ عَنِّكُمَا الْبَلَاءَ الْكَبِيرَ» (ص21)، ويلفت انتباه ابنيه إلى شكر الله على نعمه، وأن يجعلها عوناً على طاعته، وسبباً لعبادته، ويزحرهما من كفر النعمة وجوحودها ونسبتها إلى غير الله تعالى.

ثم يأتي بجملة من الوصايا في علاقة أولاده بولي الأمر: طاعته في غير معصية، وعدم الخروج عليه، «إياكما والتعريض للخلاف لهم، والقيام عليهم، فإنَّ هذا فيه العَطَبُ العاجلُ، والخِزْيُ الْأَجْلُ، ولو ظَفَرْتُمَا فِي خَلَافِكُمَا، وَنَفَذْتُمَا فِيمَا حَاوَلْتُمَا لِكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا هَلَاكِكُمَا لِمَا تَكْسِبَانِهِ مِنَ الْمَاثِمِ، وَتُحَدِّثُانَ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْعَظَائِمِ» (ص22- 23).

يحرص أبو الوليد في نصح ولديه في كل الأحوال مع كل الأشخاص، إنه يربى الابن الذي ينتمي إلى أسرة وأمة، إنه يحمل همّاً رسالياً في تربية ابنيه.. يا الله ماذا لو حمل كل أب وأم لهم الرسالي؟!

ثم يذكر وصية لقمان لابنه مخافة أن تُفقد وصيته، فتنسى، احتراماً منه وتحسباً لأي ظرف يخل بذلك الوصية، وحرصاً على إيمانها بكل الأسلوب، يا الله على حرصه وشفقته ورحمته بابنيه.

ويختتم وصيته بالتوكل على الله في تربيته الإيمانية لولديه، «وَإِنِّي لاؤوصيكم، وأعلمُ أَنِّي لَنْ أَغْنِيَ عَنْكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً. إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ مَنْ شَاءَ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكِّلُوا فَلَيَتَوَكَّلَ الْمُتَوَكِّلُونَ» [يوسف: 76]، وكأني بخاتمه يوصي فيها كل الآباء والأمهات بالتوكل على الله في تربية أولادهم، وهذا ما نغفل عنه أحياناً.

إنَّ الوصية الولدية على أهميتها إلا أنها لم تحظَ بالاهتمام من جهة التربية الولدية وأثرها على الأولاد، تعلماً وتعليناً وشرحاً وتوجيهاً، وقد شُرحت^[5] وكتبت لها وقفات^[6]، وهو شرح لمسائلها، أي أنها ابتعدت عن الهدف التربوي الذي لأجله وضعنا الوصية.

إنَّ كل ما أتمناه أنْ تُفعَل هذه الوصية تربوياً داخل كل أسرة، ويُخطب بها على المنابر، ويُشار إليها في محافل مجالس الآباء والأمهات التي تعقدتها المدارس، وتُعقد لها دورات تربوية للوالدين تُستلِّ مادتها من الوصية، ويلزم كل أم وأب بحضورها كالدورات التي تعقد للزوجين، ف التربية الأبناء مسؤولة. لماذا تكثر حالات الطلاق؟! لأن الزوجين لم يؤهلاً؛ جميل، لكنَّ ثمت سبباً حقيقياً يقف خلف هذا وهو التربية!! فيتعدد الحال دون أن ننتبه له وننفِّع عليه، ونجهثه من جذوره.

من خلال التربية الإيمانية سيخرج لنا جيل منتج واعٍ متمسك بدينه، يبني مستقبلاً أمنه ولا يأكله، ولا يرقض على جراحها، ولا يت肯َّ لمستقبليه، ولا يسلم عقله لغيره ليتحكم به، يفكر ولا يكفر، يحلل ويدلل، ويتعلم ويعُلِّم، يترك أثراً قبل وبعد رحيله، ولنا أن نتأمل عظيم أثر التربية الدينية في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ مَوْلَدٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَإِنَّمَا يُهُوَدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» متفق عليه، وفي هذا يقول ابن تيمية: «المراد بالحديث أنَّ الأبوين يلقانه الكفر ويعلمانه إياه، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأبوين لأنَّهما الأصل العام الغالب في تربية الأطفال، فإنَّ كل طفل فلا بد له من أبوين وهو اللذان يربيانه مع بقائهما وقدرتهم»^[7]، وهذا بخلاف المنظمات الدولية الغربية التي تسنِّ المواثيق لإحداث هوة سحرية تفصل الآباء عن الأبناء من جهة الدين، لتعطي الابن حرية اختيار دينه، ولا تجعل للأب أي سلطة على الابن، ولنا أن نتصور مدى التشتت الذي يهدِّم الأسرة من جذورها ليفتكها، ويسعى في تقويضها بشتى الطرق، وهذا ما نبه إليه غوستاف لوبيون حين عدد ما تتمتع به شعوب الشرق بخلاف شعوب الغرب، حيث يقول: «تتمتع شعوب الشرق بما خسرناه من التماสک، فمعتقدات هذه الشعوب لا تزال قوية، وتحافظ أسرها على استقرارها القديم، وبقيت مقومات المجتمعات القديمة، كالديانة والأسرة والنظم والتقاليد والعادات، وهي التي أصابها في الغرب من الهدم ما أصابها، مؤثرة في الشرق مسيطرة عليه، وليس على الشرقيين أن يفكروا في تبديلها»، ويقول أيضاً: «ما بين الشرق والغرب من الاختلاف عظيم إلى الغاية، ويبلغ من عظمه ما يتعدَّر معه اعتناق أحدهما لمبادئ الآخر وتفكيره»^[8].

أختم بأنه لابد من أن يعود للأسرة دورها، وهذا لن يكون حتى يدرك الآباء والأمهات دورهم الحقيقي في التربية، وألا تقتصر على الجانب المادي وحده، فلا بد من الجانب الإيماني، والتوازن بينهما مطلب ملح؛ «فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته».

[1] التحرير والتنوير، لابن عاشور.

[2] جامع العلوم والحكم لابن رجب، وله رسالة بعنوان «نور المقباس في فوائد حديث ابن عباس».

/http://www.alukah.net/social/0/74796 [3]

[4] ينظر للترجمة: «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» لابن فردون ص76، و«طبقات الحفاظ» للسيوطى (1/98)، و«شدرات الذهب في أخبار من ذهب» لعبدالحى بن أحمد بن محمد العكرى الحنبلي تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمد الأرناؤوط (3/345)، و«مرآة الجنان وعبرة اليقطان في معرفة حوارث الزمان» ص446، و«طبقات المفسرين» لأحمد بن محمد الأذرñoوي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزى ص131.

[5] شرحها الشيخ صالح السحيمي حفظه الله: <https://www.youtube.com/watch?v=OAZVsYN1KIE>

[6] قراءة في وصية أبي الوليد الباقي د. فيصل العزاوى: / http://www.alukah.net/culture/0/38836

[7] درء تعارض العقل والنقل.

[8] حضارة العرب.

مجلة البيان العدد 341

المصادر: